

تكامل الإنسان في القرآن

إن غاية الإسلام هي السلام . فأحكامه من أوامر ونواه ، وقواعده من أصول وفروع ، ومنهاجه من تربية وتنشئة ، تنتهي جميعاً إلى تحقيق سلام الإنسان : سلام الإنسان مع نفسه ، ثم عائلته : جماعته الصغيرة ، وموطنه : جماعته الأوسع نطاقاً ، فالإنسانية قاطبة : جماعته الكبرى ، وأخيراً مع الكون الفسيح ، الذي يعيش فيه ، ويتأثر به .

فالقرآن (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام) ، (والله يدعو إلى دار السلام) ، والمسلمون المؤمنون (لهم دار السلام عند ربهم) ، وهم عند دخولهم الجنة تحييهم الملائكة (وقال لهم خزنتها سلام عليكم طيبم) ، وهم فيها (لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً) ، والله جل وعلا (هو الملك القدوس السلام) .

وليس السلام بالمطلب الهين ، فبواعث القلق والخوف والضيق ، ودواعي التردد والارتباب والشك ، تصاحب الإنسان منذ يولد حتى يوسد التراب . فهو بعجزه أمام الكون المترامي غير المتناهي ، وجهله سر ظواهره الواضحة دع ، عنك الخفية ، وحيرته أمام آفاقه الفسيحة غير المحدودة وقوانينه الدقيقة غير المفهومة ، وفرعه لما يقع فيه من تطورات تسبب له الكوارث المهلكة من زلازل وبراكين ، وسيول وأعاصير ، وتقلبات جوية تدمر زرعه حيناً وتبيد نسله حيناً ، أصبح الخوف هو القانون المسيطر على حياة الإنسان . ومن ثم بذل الإنسان الأول أكبر جهده ، وصرف معظم وقته لتأمين نفسه ، من عوادي الطبيعة وعوادي الحيوان ، بل عوادي الإنسان نفسه ، وأصبح يعرف أن تحصيل رزقه ، وتوفير قوته ، وتهيئة مسكنه والاستئثار بأنثى أو إناث ، لا تهيب كلها له السعادة التي ينشدها ، لأن خوفه المستمر من خطر حقيقي أو متوهم ،

حال أو متوقع ، يعكس صفوه ، وينبئ عنه لذة الطعام ، ويبدد له راحة البال .
ولذلك كانت قاعدة الإسلام التي يقوم عليها كل بنائه هي السلام .
فإله المسلمين هو السلام ودار المسلمين هي دار السلام ، وتحية المسلمين
في الدنيا هي السلام ، وتحييتهم في الآخرة هي السلام (خالدين فيها
بإذن ربهم ، تحييتهم فيها سلام) ، (ويلقون فيها تحية وسلاماً) ، والجنة
هي سلام دائم (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً) .
فكيف يحقق الإسلام للمسلمين السلام ؟ إن الإسلام يقيم صرحه
الشامخ بأحكام وأنظمة على العقيدة ، فالعقيدة هي مستودع قوة الإنسان
وسر أسرار الوجود الإنساني بأسره ، منها البداية وإليها النهاية ، فإذا
كانت عقيدة الإنسان مفضية إلى تفتيت النفس الإنسانية وإحالتها إلى
ميدان صراع بين قوتين من قواه ، تتجاذبه يميناً ويساراً ، سدت سبل
السلام في وجه الإنسان . أما إذا كانت عقيدة الإنسان تخلق منه وحدة
متألّفة متسقة ، فقد أصبحت قوة لا ترد ، تتضاءل أمامها مفرعات
الكون ، وتتبدد ظلمات الوجود .

وأولى مشكلات الإنسان التي حيرته وأرهقته وبددت قواه العقلية
والروحية ، هي مشكلة الخير والشر في الوجود . وقد تباينت مواقف المذاهب
الإنسانية من هذه المشكلة . فعقائد ترى أن القوى المسيطرة على هذا الكون
هي قوى الشر ، وأن الخير عاجز أمامها لا قبل له بمواجهتها فضلاً عن
التغلب عليها ، فلا سبيل له إلا الاستسلام لها ، أو ترصيتها ما استطاع ،
فإن استخلص من برائنها شيئاً فإلى حين ، إذ لا تلبث أن تستعبده
وتلتهمه ، لأن قانون هذا الوجود هو الفناء لا البقاء ، والنفس لا الصلاح ،
والعنف لا الرحمة ، والجوف لا المحبة - وبالجملة كل شيء باطل .

وعقيدة ترى أن الوجود معركة ، هي حرب سجال بين الشر والخير ،
يكسب هذا حيناً ، ويخسر حيناً ، وهي معركة لا تنتهي ، ولا تحقق
شيئاً ، فما يبنى يهدم ، وما يهدم يبنى ، وما يزول يعود للظهور ، وما

يظهر يختفى من جديد ، وهكذا دواليك ، وعلى الإنسان أن يقاوم ، فهذا قدره ، وإن كانت مقاومته عبثًا ، فهي من قبيل ما كتب على « سيزيف » في أساطير اليونان ، يصعد بالكرة إلى أعلى الجبل ، ولكنها لا تلبث أن تتدحرج إلى سفحه ، فيعدو إليها ليعود بها من جديد إلى القمة فتفلت منه إلى السفح من جديد .

وعقيدة ثالثة ترى الخير والشر عنصريين متكاملين كأنهما الليل والنهار ، أو الشهيق والزفير ، لا تكمل الحياة بدونهما ، فالخير ينقضه الشر ، ليأتي خير أكمل ، لينقض من جديد . ولا معنى للحياة إلا بنقض أحدهما الآخر ، وتعاقبهما ، لتكون حياة أكمل .

أما الإسلام فينظر إلى نفس الإنسان ، كما سبق القول ، على أنها مستودع قوى الكون الذى يعيش فيه الإنسان فهي أقوى من الوجود المادى بيحاره وأنهاره وأمواجه وأبراجه وزلازله وبراكينه وسيوله وأعاصيره ، فالمتؤمن الذى يطيع ربه يكون ربانيًا ، يقول للشئء كن فيكون ، والنفس الإنسانية تذكر فى القرآن قرينًا لآفاق الكون فى أكثر من موضع : (وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون)^(١) ، (نسريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) وآخر الأمر أن التغير يدعه الله للنفس الإنسانية : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

ومن هنا ليس هناك شر محض ، ولا خير محض ، بل لعله لا شر قط ولا خير قط ، وإنما هناك نفس صالحة مؤمنة ونفس ضالة كافرة . ومن هنا أيضًا يغفر الله الذنوب جميعًا إلا أن يشرك به ، (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ذلك لأن الشرك بالله هو قفل نوافذ النفس الإنسانية فى وجه الكون كله ، فالشرك هو الجهل فى أقبح صوره ، لأنه يسد الطريق فى وجه الفضائل الإنسانية الأولى : العدل ، والصدق ، والإخاء ، والمساواة .

(١) سورة الذاريات ٢٠ ، ٢١ .

وبعد ذلك يتدرج الإنسان في مدارج القوة والسعادة ، بمقدار نصيبه من العقيدة الصالحة ، فيستحيل الكون خيراً وتزول الشرور ، وتصبح ظواهر الكون العظيم آيات الله للإنسان ، عليه أن يتدبرها ، وينتفع منها ، لا على اعتبار أنها كوارث صادرة عن كون أعمى ، يخبط بغير نظام .

قال الله تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئاً ، وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) (١) .

فما يكرهه الإنسان ويحسب فيه أذاه قد يكون خيراً له ، ينفعه أو يقويه ، أو يرد عنه أذى لا يعلمه ولا يدريه ؛ وما يحبه الإنسان ، ويحرص عليه ويتشبث به ، قد يرديه أو يشقيه ، أو يهين له ضرراً لا يخطر له على بال . وفي موضع آخر من القرآن ، هو الآية التاسعة عشرة من سورة النساء ، يبدو هذا المعنى أكثر جلاءً ووضوحاً :

(فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) .

فهذه الآية الكريمة زادت وضوحاً مقدار ما قد يقع فيه الإنسان من خطأ في تقدير الشرور والخيرات ، فهو لا يكره شيئاً ينفعه فقط بل يحرم نفسه من شيء فيه خير كثير له .

فالخير والشر إذن أمران مردهما تقدير الإنسان إياهما ، فإذا أخطأ ولم يحسن التقدير كان الشر فيما ظنه خيراً ، والخير فيما ظنه شراً فإذا ما يحتاج إليه الإنسان ، هو المعرفة السليمة والتقدير الحسن ، حتى لا يؤذي الإنسان نفسه من حيث أراد لها الخير (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) (٢) .

وفي القرآن موضعان آخران لا يكمل القول بغير الرجوع إلى قول الله تعالى فيهما . أول الموضعين الآية ١٦٨ من سورة الأعراف :

(١) سورة البقرة : ٢١٦ . (٢) سورة النساء : ٧٩ .

(وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون) ، وثاني الموضوعين الآتية الخامسة والثلاثون من سورة الأنبياء (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) . فالخير والشر في ضوء هذه الأحكام السماوية مبعثهما نفس الإنسان ، ومقدار علمه ، ونصيبه من العقيدة الصالحة ، فالسلاح الذي يدفع به الإنسان عن نفسه الأذى ، هو نفس السلاح الذي قد يقتل به الإنسان نفسه أو أحب الناس إليه ، عمداً أو خطأ ، والآلة التي يمهد بها الإنسان الأرض ، هي الآلة التي يمكن أن يقصم بها ظهر الحيوان الذي يعينه ، والطعام الذي يمنحه القوة والصحة ، يمكن أن يكون الطعام الذي يسبب التخمة ، فالمرض فالموت .

فإنه يتلى الإنسان بالسلطان والثروة والنفوذ ، وجمال الوجه ، وحب الناس وكثرة العلم ، إذ قد يكون له من وراء كل هذه الخيرات شرور ، وأذى كبير . كما يتليه بالضعف والمرض والجهل والفقر ويكون له من وراء ذلك خير كبير .

في الأولى : قد يبطره الجاه والمال ويدخل في قلبه الغرور ، ويضيع عليه فرصاً ويجلب عليه كراهية الناس ، فيفقد كل ما جمع .

وفي الثانية : قد يدفع شعور الإنسان بجهله إلى طلب العلم ، ويدفعه الفقر إلى التواضع وتآلف الناس ، وضبط النفس واحتمال مشقات الحياة .

وما يحدث للأفراد يحدث للجماعات . فكم من جماعة ابتليت بموقع من الأرض جذب ، فأحسن رعايته ، واستخرجت منه الكنوز والثروات ، وأخرى أصابت موقعاً غنياً وسخياً ، أفاء عليها فيه الله ، فأورثها الرخاء والترف والرخاوة والاستهانة ، فغلبها على أرضها أقوام آخرون أجلاف لا نصيب لهم من العلم والمدنية . وهذا هو قانون الحضارة الدائم : أم تملو بجدها وصبرها ، وتقوى بتأسك أبنائها ، وتحملهم المشاق ، فإذا حققت الثروة والجاه ، غفلت عن سلاحها ، وأهملت

علمها ، فإذا هي لقمة سائغة لغيرها ممن هم أقل منها علماً وثروة ، وأكثر منها جلدأً وصبراً .

وفي القرآن آيات كثيرة ، تذكر المسلمين بهذا القانون ، وتعرضه في أكثر من صيغة (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة) (١) ، (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق) (٢) . (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) (٣) .

وهذا هو القانون الذي يفسر به « توينبي » المؤرخ الإنجليزي التاريخ العام كله ، ويسميه قانون « التحدي » فمن نزل به شر ، سواء كان ضيقاً في الرزق ، أو فقراً في الأرض ، أو ابتلاءً بجار لا يكف عن العدوان ، حفزه هذا المكروه ، أو ذلك الشر ، إلى تجميع قوته ، واستشارة كامن مواهبه ، ليعلو عليها وينجو منها ، فإذا هو أحسن حالا ، وأقوى مما كان ، وأقدر على الحياة .

ودلالات التاريخ القديم والحديث ، ودلالات حياة الأفراد الكبار والصغار تؤيد هذا القانون القرآني ، فأهل المناطق الباردة التي لا ينقطع فيها هطول الأمطار ، وإظلام الضباب ، وتنطفي فيها الشمس ، وتهبط درجة الحرارة إلى ما دون الصفر بكثير ، تطيب فيها الحياة ، ويحلو مذاقها ، وتردهر فيها الفنون ، وتؤتي ثمارها ، ويضطرر فيها سير العلوم وتزكو آثارها عن بلاد أحسن أرضاً ، وأطيب جواً .

(١) سورة فاطر : ٤٤ .

(٢) سورة غافر : ٢١ .

(٣) سورة غافر : ٨٢ .

فالإيمان . بفضل عقيدة القرآن : ليس عنصراً ضعيفاً لا حول له ولا قوة . أمام عالم أعمى ، لا سبيل إلى التفاهم معه ، أو تحقيق الأمن فيه ، بل إن الإنسان يملك مصيره ، ويشق في هذا الكون طريقة ، وبقدر إيمانه يعاود ما يبدو شراً مستطيراً ، أما هذا العالم ، بشقيه الظاهر والباطن . فخاضع للإنسان ، إن عرف كيف يهتدى إلى مقاليد ومفاتيحه . بفضل إيمانه بنفسه وإراداته في طلب العلم وتحصيله ، فالله تعالى يقول لنا : (وسخر لكم الأنهار)^(١) ، (وسخر لكم الشمس^(٢) ، والقمر دائبين) ، (وسخر لكم الليل والنهار)^(٣) ، (الله الذي سخر لكم البحر)^(٤) ثم (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض)^(٥) . ليس إذن الكون المادي الذي يحيط بنا عدواً لنا ، وإن أصابنا من بعض ظواهره كوارث ، فحسب الإنسان أن يتأمل ، ويدرس ، ويتعلم ، حتى يمكنه أن يتقن هذه المصائب المدلّمة ، ثم يحولها إلى خير كثير . والعلم يثبت لنا صحة هذا النظر .

وإذا عرف الإنسان صلة الشر والخير بنفسه ، كما عرف صلته بهذا الكون المسخر له ، وأدرك أن عقيدته ، ومقدار إيمانه ، هو الذي يحقق له الخير أو يوقعه في الشر ، بدت له الحياة جديدة بأن تحيا ، وبدت له صعابها ومشاقها ، خليقة بأن تتحمل لتدرس ، ثم لتتقن ، ثم لتستحيل مصدرها للنعم . وأخيراً بدت له الحياة ذات معنى وأنها ليست عبثاً لا طائل تحته ، وأن معناها هذا خليق بأن ينجينا من شدة الفرح بما تحقق من خير ، ومن شدة الجزع لما يصيبنا من ضرر : (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم) ، فهذه التقلبات امتحان مستمر للإنسان ، ليسبر غور نفسه ، وليقيس قوته وقدرته ، وليستخرج من

-
- (١) سورة إبراهيم : ٣٢ . (٢) سورة إبراهيم : ٣٣ .
 (٣) سورة الجاثية : ١٢ . (٤) سورة لقمان : ٢٠ .
 (٥) سورة لقمان : ١٢٠ .

أعماقها مزيداً من خيراتها وفضائلها التي قد يبتغى جاهلاً إياها مغضاً من قدرها ، حتى تكشفها له الأحداث ، وترىها إياه المحن .

ولكن هذه الحياة لا تستمد معناها منها نفسها ، إذ أنها ليست سوى الطريق إلى حياة أعلى منها شأنًا ، وأكبر منها معنى ، تلك هي الحياة الأخرى ، هذه الدار الأخرى عند المسلم استحثاث مستمر دائم لا ينقطع لخطاه نحو الكمال والتسامي ، ولا نهاية لهذا السعي ، ما دامت الحياة متصلة ، وما دام كل عمل مهما صغر له جزاؤه في هذه الدنيا ، وفي الآخرة على السواء :

وهذا فالدعاء — دعاء المسلمين ، كما علمنا القرآن : (ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة) .

والصلة بين الدنيا والآخرة ، في الإسلام ، صلة غاية في اللطف ، ولهذا تخفى على غير المسلمين ، وتخفى أحياناً على بعض المسلمين ، فإن هؤلاء وأولئك يرون في القرآن ذمماً في الإقبال على الدنيا ، والانصراف إليها : (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) ، (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) ، (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) فالقرآن لا يزال يذكر المسلمين بأن ما في الدنيا زائل وفان ، ولا قيمة له لكنها كذلك — إذا قورنت بما في الآخرة ، وبما عند الله ، وبالجهاد في سبيل المبادئ التي تجعل حياة الإنسان — أفضل وأبقى وأجمل . ولكن الدنيا في ذاتها ، ليست مهمة ، ولا منسية عند المسلمين لأن قانون المسلمين (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا) و« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

وفي هذين الأثرين تكاد تتساوى الكفتان ، فكأن الدنيا والآخرة ندان ، وهما ندان طالما اتصلت أولاهما بأخراهما ، أما إذا كانت الدنيا عالماً قائماً بذاته يقف الناس عنده بأمالهم وهمومهم وسعيهم وتفكيرهم ، فهي في هذه الحال دار لعب ولهو ، وهي متاع الغرور ،

وهي متاع قليل ، بل إنها شر مطلق ، فالحكم على الدنيا ، وخيرها وشرها ، فرع من قانون الخير والشر في الإسلام ، فما قصد من الدنيا خيرها الزائل من متع البدن ، والثروة والأولاد والأموال ، وحب الشهوات فهي مفضية إلى الجحيم والحسران ، أما إذا كانت الدنيا مقدمة للآخرة فقد أصبحت داراً جديرة بأن يرعاها الإنسان ، ويزيد من جمالها ، ومن أمنها ، وخيرها ، لأنه لن يصيب خيراً في الآخرة إلا بعمل في الدنيا ، إذ لا يستطيع الإنسان أن يقفز إلى الآخرة من فوق الدنيا فإنها الطريق إليها ، ولا طريق سواها . فالصلة إذن بين الدنيا والآخرة وثيقة إلى أقصى حد ، والمسلمون مطالبون بأن يجعلوا دنياهم على نسق أخراهم . أن يجعلوها دار محبة ، لا جدال فيها يفضى إلى الشحناء ، ولا أحقاد ، ولا تعطيل لمصالح الناس ، ولا أذاهم باللسان أو باليد أو حتى بالخاطرة تمر في الرأس .

والأمثلة على ما نقول كثيرة ، نجترى بأوضحها دلالة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يثاب المرء على اللقمة حتى يرفعها إلى في امرأته » وقال رسول الله يوماً لبعض أصحابه : « في وضع أحدكم صدقة » والوضع هو ماء الرجل يقذف به عند المعاشرة الزوجية . فقال أصحاب رسول الله : يا رسول الله ، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ فقال : « نعم رأيتم إذا وضع في حرام أيكون عليه وزر ؟ » (قالوا : نعم) . قال : كذلك إذا وضعه في حلال يكون له أجر .

ومن هذين الأثرين يظهر جلياً أن ما يبدو شديد الصلة بالحياة الدنيا ، من لقمة تؤكل ، ومن لقاء بين الزوجين يتم ، وهو ما يبدو في الوقت نفسه منقطعاً عن الحياة الأخرى ، التي هي حياة الأرواح التي فرغت من هموم الدنيا ولذائد البدن . هذا الذي يبدو دنيوياً غير روحى ، وغير أخروى ، هو بميزان الإسلام ، عمل صالح ، فسيكون له جزاء في الدنيا وفي الآخرة ، إذ أن كل ما يسبب للناس في الدنيا ،

راحة أو متعة أو تفحفاً ، وما يسر لهم صعباً أو يقرب لهم بعيداً ، أو يوضح لهم غامضاً ، أو ينقذ عنهم أسباب الفرقة والشقاق هو عمل أخروي له جزاء في الدار الآخرة .

فالثواب ليس وقفاً على العبادات بأنواعها ، لأن العبادة في الإسلام ليست الصيام والقيام والإنفاق والحج ، قال رسول الله يوماً : « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصيام ولا القيام » فقال أصحابه : وما يكفرها يارسول الله : قال : « الهوم في طلب العيش » .
ومن قبيل هذا : « لمداد تريقه أقلام العلماء خير من دماء الشهداء » .

وفي هذا المعنى ما روى عن رسول الله من أن الناس تحدثوا إليه عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل فقال : « ومن يقوم عليه ؟ » أي من يوفر له أسباب العيش ؟ قالوا : أخوه . قال : « أخوه أعبد منه ؟ »
ولقد نهى الرسول صحابته أن يصوموا فلا يفطرون ، أو أن يقوموا الليل كله فلا ينامون ، أو يهجرُوا الناس ، وقال : « أنا أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام وأتزوج النساء » .

وقد قال لنا الله تعالى في سورة الجمعة : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَادَى لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ، وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) ، فالتجاور الشديد بين الصلاة والانتشار في الأرض ، مما يشعر بتكامل العاملين وعدم انفصال أحدهما عن الآخر ، وقد قال الله تعالى أيضاً : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) ، وهو سؤال يستنكر فيه الله تعالى هذا التحريم لزينة الحياة وطيبتها ، لأن دنيا المسلمين ، هي دنيا الجمال ، والأناقة ، دنيا العاملين الذين يجتمع في عملهم النشاط ، ولطف المعاملة .
فالحياة الدنيا ، إن كانت استكثاراً للأموال وتفاهراً بالأولاد ،

واستعلاء على الناس ، ونسياناً لما يدعو إليه القرآن في كل خطوة ، وفي كل حركة ، من إقامة العدل ، وإشاعة الرحمة ، وإذاعة العلم .
وصلة الرحم والأخذ على يد الظالم ، فهى الحسran والبوار .

وفي هذا المبدأ الذى يصل الدين بالدنيا ، والأولى بالآخرة ، يصبح الإنسان كلاً لا ينفصل ، فليس فى الإسلام روح بلا بدن ، ولا بدن بدون روح ، وائس هناك حاجيات للإنسان روحية ، وأخرى مادية ، فكل عمل مادي بحت ، كطعام يؤكل أو شراب يشرب ، أو امرأة يتزوجها ، أو بناء يقيمه ، أو تجارة يديرها ، أو مساكن يرضاها كل أولئك له جانبه الروحى ، وهو لا ينسى ، لأن العبادة فى ذاتها شديدة الاتصال بالجانب المادى لحياة الإنسان ، فهى لا تصقل روحه ولا تنقى قلبه فقط ، وإنما تقيم حياته اليومية ، على أسس أكثر سلامة وتعينه على أن يربح ، وعلى أن تزداد الحياة ، لطفاً وأناقة وجمالاً ، ولهذا جاء فى الأثر : «إن لبدنك عليك حقاً» وجاء فيه : «إن مصلحة الأبدان قبل مصلحة الأديان» ، و« إن الله يجب أن تؤتى رخصه كما يجب أن تؤتى عزائمه » .

من كل هذا لم يكن ممكناً أن يصيب المجتمع الإسلامى ، ما أصاب غيره من المجتمعات من التصدع بسبب هذا الصراع بين الفرد والجماعة ، فالمذاهب الفردية تعلى من شأن الفرد ، ولا تطبق أن تمس حرته ، أو ينتقص ماله ، وترى الفرد هو الغاية من كل قانون ، وركن الزاوية فى كل نظام ، وتحسب أن تنافس الأفراد الحر الطليق ، هو الذى يؤدى إلى زيادة الثروات ، ونمو الطاقات ، وازدهار الأفكار والابتكار ؛ وأن الأفراد السعداء الأقوياء هم الأفراد الأحرار ، وأن الجماعة السعيدة هى التى تتكون منهم .

أما المذاهب الاجتماعية ، فترى أن الأفراد ، إذا أطلقت لحريةهم العنان ، فقد استحال حياتهم إلى فناء ، إذ أن الفرد يجب أن يستزيد

من المال ، بأى سبيل ، وأن يحصل على القوة بكل وسيلة ، وعندها سيداس الفقراء والضعفاء بالأقدام : ومن هنا لن تقوم في المجتمع سعادة ، بغير نظام يقدم مصلحة المجموع على الفرد ، ويحدد الحريات ، ويوقفها إذا اقتضت المصلحة ، ويوجه الثروات ويصادرهما ، إذا لم تكن ثمة وسيلة غير المصادرة للإصلاح . أما الإسلام ، فقد أعلى قدر الإنسان ، وحمى شخصه ، وماله ، ومسكنه ورأيه : من عدوان العادين ، ولكنه أخرج الإنسان منذ مولده اجتماعياً يحب الجماعة ولا يراها عدواً له ، فقد قال رسول الله : « يد الله مع الجماعة ، والشيطان مع الفرد » ، وقد قال العباس عم الرسول للرسول عليه الصلاة والسلام : لو نقيم لك عرشاً ، فإن الناس قد آذوك ، فقال : « والله لا أزال بين ظهرانيهم ينازعونى ردائى ، ويصيبنى غبارهم حتى يريحنى الله منهم » .

فالرسول ، وللمسلمين قدوة حسنة فيه ، كان يرى أن مكانه هو بين الناس ، لا يتعد عنهم ولا يقوم بينه وبينهم حاجب يحجبه عنهم ، فعلموا أن المسلمين يجب أن يعيشوا معاً يتقاسمون السراء والضراء ، وقد حفظوا عن قرآنهم : (إنما المؤمنون إخوة) ، وعلموا من الرسول أن لا يكمل إيمان أحدهم ، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم ، كالجسد إذا اشتكى عضو منه ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . وبفضل هذه الروح الجماعية ، عند أفراد المسلمين كانت الجماعة محبة إليهم ، ليست عدواً لهم ، ولا شيئاً منفصلاً عنهم ، كما هي مثلاً في المذاهب الشمولية أو الكلية في أوروبا الحديثة ، كالفاشستية والنازية ، فقد قال « ألفرد روكو » وزير العدل في حكومة موسوليني : « إن الجماعة في المذهب الفاشستى ليست مجموعة الأفراد ، وإنما هي كائن مستقل عنهم ، منفصل عن وجودهم ، له ذمة خاصة به تراكم فيه وتجتمع حصيلة التراث السابق على مولد هؤلاء الأفراد ، والذي يستمر بعدهم ،

أما الجماعة في الإسلام ، فهي المصلحة العليا للأفراد ، ولكن يحكمها الدين الإسلامي ، أي عقيدة الإسلام ، كما تحكم كل فرد منهم ، فليس للجماعة حق ليس للأفراد ، فهي لا تستبيح حرمان الناس ، وهي لا تقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وهي لا تمثل بالأحياء ولا بالموتى ، لأن الحاكم المسلم كالفرد كلاهما خاضع لحكم الإسلام ، فإن خرج عليه جاز محاكمة الحاكم ، وعزله ، بل الحكم عليه بالموت . فدولة المسلمين لا يحق لها كغيرها من الدول أن تطارد الأفراد ، وتتجسس عليهم ، بل إن المواثيق والعهود ، تربطها كما تربط أي فرد ، فقد قيل يوماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن جماعة من غير المسلمين ارتبطت معهم بميثاق تنهياً لنقض العهد والانقضاض على المسلمين ، فلم يأذن للمسلمين أن يبادئوها بالخيانة أو يسبقوها إلى الغدر ، وقال : أوفوا لهم واستعدوا » ومن هنا لم يقم بين المسلمين في عهود دينهم المشرقة ، ما قام في ظل الدول الأخرى من صراع دام بين الأفراد والدولة ، أو بين الحاكم والمحكوم ، وهياتهم العبادات الجماعية من صلاة الجماعة والصلاة الجامعة يوم الجمعة ومؤتمر المسلمين الشاهل في يوم الحج ، أن يتشربوا روح الجماعة ، وأن يتعلقوا بها ، وأن يتحاشوا ما استطاعوا أن يخرجوا عن سبيل المسلمين متذكّرين قول الله تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيراً) .

وبهذا كله تصبح دنيا المسلمين دنيا سلام حقاً ، سلام يشمل الفرد والجماعة ، ويشمل الحاكم والمحكوم ، ويسود علاقة المؤمن بنفسه ، وعلاقته بربه ، وعلاقته بالكون الفسيح الذي يزداد له كل يوم فهماً ، وعليه سلطاناً ، فيزداد معرفة ، وعلماً وطمأنينة وسلاماً .